

**قراءة في كتاب الدكتور فاطمة كدو:
'الخطاب النسائي ولغة الاختلاف؛ مقاربة للأنساق الثقافية'**

**A reading in the book of Dr. Fatima Kedo:
«Feminist Discourse and the Language of
Difference: An Approach to Cultural Patterns »**

أ. د. أحمد رزيق

**المركز الجهوي لمهن التربية
والتكوين
الدار البيضاء، المغرب**

razikahmed2004@gmail.com



قراءة في كتاب الدكتور فاطمة كدو: "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف؛ مقاربة للأنساق الثقافية"

أ. د. أحمد رزيق

ملخص:

تسعى هذه القراءة في كتاب الدكتور فاطمة كدو، والموسومة بـ "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف؛ مقاربة للأنساق الثقافية"، إلى التعريف بمجهود علمي أكاديمي من خلال الوقوف على محتواه العلمي الذي تشكل من تقديم عام وثلاثة أقسام؛ قسمان نظريان، تناولت فيهما الناقدة خطاب المرأة في الأنساق الثقافية وفي الكتابة السردية النسائية، والقسم الأخير تطبيقي، أجرات فيه هذه الآليات الثقافية عبر وقوفها على عدة متون سردية نسائية مغربية، لإبراز لغة الاختلاف في خطاب المرأة. كما سعت هذه القراءة إلى الكشف عن طبيعة المناهج التي اعتمدها الباحثة في كتابها، مع إبراز مجمل القضايا التي ناقشتها الكاتبة في دراستها الأكاديمية، والنتائج التي توصلت إليها الدكتور فاطمة كدو.

الكلمات المفتاحية: الخطاب النسائي، لغة الاختلاف، الأنساق الثقافية، المؤسسة الثقافية.

Abstract:

This reading in Dr. Fatima Kaddou's book, titled "Feminist Discourse and the Language of Difference: An Approach to Cultural Patterns," aims to introduce an academic scholarly effort by examining its scientific content, which consists of an introduction and three sections. The first two theoretical sections discuss the critique of women's discourse within cultural patterns and feminist narrative writing. The final section, which is practical, explores these cultural mechanisms by analyzing several Moroccan feminist narrative texts to highlight the language of difference in women's discourse. Additionally, this reading seeks to uncover the nature of the methodology/ies employed by the researcher in her book, while summarizing the issues discussed in her academic study and presenting the results reached by Dr. Fatima Kaddou.

Keywords: Feminist Discourse, Language of Differences, Cultural Patterns, the cultural institution.

1- مقدمة:

شكلت الكتابة السردية مرتعا خصبا للإبداع النسائي، حيث أن المرأة المبدعة وجدت ملاذها في السرد، مستفيدة من تنامي مكانتها داخل المجتمع، وانفتاحها على آفاق جديدة، عززت موقعها في المشهد الثقافي العربي. فقد كان السرد بالنسبة إليها، بمثابة العصا السحرية التي تُطوِّعها لنقل هواجسها، معاناتها، أحلامها.. ومحاولة التخلّص من النظرة النمطية لها، التي كرستها روافد ثقافتنا العربية على مرّ العصور.

وقد نجحت المرأة العربية عموما والمغربية خصوصا في تحقيق تراكم مهمّ في مجال الإبداع السردية سواء في الجنس الروائي أو القصصي، وهو ما ساهم في تنامي المواكبة النقدية لإبداعاتها، وخاصة الاهتمام بإبراز سمة الخصوصية في ما تنتجه المرأة. ولعلّ الناقدة المغربية "فاطمة كدو"¹ من بين هؤلاء النقاد الذين أخذوا على عاتقهم همّ الحفر في المنجز السردية النسائي، حيث حاولت في كتابها "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف" مقارنة الأنساق الثقافية المبتوثة في مجموعة من المتون السردية النسائية المغربية، بهدف إبراز لغة الاختلاف في الخطاب النسائي، من خلال الانفتاح على مجموعة من المقاربات التي عنيت بهذا الخطاب، كمقاربات نصر حامد أبو زيد، وفاطمة المرينسي، وعبد الله الغدامي. وهي مقاربات تعتمد على مساءلة الماضي المتمثل في التراث، لاستشراف الحاضر وتفسير أبعاد الأنساق الثقافية العربية وتأثيرها في تشكّل الذهنية العربية.

وسنحاول في قراءتنا لكتابتها: "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف؛ مقارنة للأنساق الثقافية"، الوقوف على أهمّ القضايا التي تشكّل محتوى هذا المنجز النقدي، من خلال استخلاص أهمّ المضامين والإضافات التي جاءت بها "فاطمة كدو".

2- حول الكتاب:

1-2- قراءة في العنوان:

يعدّ "العنوان عتبة من عتبات النصّ، فهو ممتلك لبنية ودلالة لا تنفصل عن خصوصية العمل الأدبي"² وعنوان المنجز النقدي موضوع دراستنا: "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف"، يضمّ مركّبين اسميين عطف ثانيهما على الأول، وكما هو واضح فهذا العنوان يحوي مجموعة من المفاهيم التي ينبغي الوقوف عندها، بدءا "بالخطاب" الذي يعدّ من المفاهيم التي فرضت نفسها في حقل الدراسات الأدبية والنقدية على وجه الخصوص، وتعدّدت تعريفاته بتعدّد الحقول المعرفية التي ينتهي إليها، حيث نجد الناقدة "فاطمة كدو" تشير إلى أنّ مسألة تعريف الخطاب هي إشكال نظري يصعب الحسم فيه، "حيث لم تستقرّ الدراسات والأبحاث على تعريف نهائي وعملي له"³. و"الخطاب" في هذا العنوان يأتي معرفا للدلالة على أنّه خطاب

1- الدكتورة فاطمة كدو، أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

2- عبد الفتاح الجهمري: عتبات النصّ البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص1817.

3- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص17.

مخصص فهو ليس خطاباً عاماً، بل محدّد ومخصّص لجنس معيّن وهي "المرأة"، فالناقدة تصفه بأنّه "خطاب نسائي"، وهنا نجدّها تقرّ بصعوبة المقاربة التي تنوي القيام بها نظراً "للحمولة الفكرية والسياسية والدينية والاجتماعية والثقافية لهكذا خطاب"¹، فالوصف الذي أطلقته على هذا الخطاب وهو "النسائي" يبعث على الظنّ أنّها تقصد "بالنسائي" كلّ ما تكتبه المرأة بغضّ النظر عن انتماءاتها السياسية والفكرية، ولكن "فاطمة كدو" تفنّد هذا الظنّ، حيث توضّح أنّ الخطاب النسائي لا يقصد به الخطاب الذي تنتجه المرأة، "بل هو كلّ خطاب ينتج عن المرأة وحولها من طرف الرّجل أو المرأة معاً"². وهذا اعتراف صريح من الكاتبة بانخراطها في النقد النسوي، هذا فيما يخصّ الجزء الأوّل من العنوان، في حين أنّ الجزء الثاني منه "لغة الاختلاف" يشير إلى نوع اللّغة التي تكتب بها المرأة وهي لغة تصفها "كدو" بأنّها لغة مختلفة عن اللّغة التي يكتب بها الرّجل، ولعلّ المتون السردية التي اختارتها الناقدة كانت بغرض الوقوف على طبيعة هذا الاختلاف الذي يميّز الكتابة النسائية.

2-2- توصيف الكتاب ومرجعياته:

"الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، مقارنة للأنساق الثقافية" كتاب نقديّ للناقدة المغربية "فاطمة كدو"، يقع هذا المتن في مائتين وثلاث وخمسين صفحة من الحجم المتوسط، وقد صدر عن منشورات دار الأمان، بالرّباط، في طبعته الأولى سنة 2014. يتكوّن هذا المؤلّف من تقديم وثلاثة أقسام؛ قسمان نظريّان، تناولت فيهما الناقدة خطاب المرأة في الأنساق الثقافية وفي الكتابة السردية النسائية، والقسم الأخير تطبيقيّ، أجرات فيه هذه الآليات الثقافية عبر عدّة متون سردية نسائية مغربية، لإبراز لغة الاختلاف في خطاب المرأة. وبالرغم من أنّ الناقدة لم تصرّح في مقدّمة الكتاب بالمنهج المعتمد في هذا المتن النقديّ، فإنّ القراءة المتأنية للكتاب تكشف توسّل الناقدة بمجموعة من المناهج، حيث يظهر منذ عتبة العنوان الفرعيّ لهذا المتن "مقاربة للأنساق الثقافية" تبني الكاتبة للنقد الثقافيّ الذي يعدّ "فرعاً من فروع النقد النصّوصي العامّ، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللّغة وحقول (الألسنية) المعنية بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافيّ"³. كما نلاحظ اعتمادها على المنهج التكامليّ الذي يستند على مجموعة من المناهج مثل:

- ✓ المنهج الموضوعاتيّ، حيث أنّ الناقدة درست "خطاب المرأة" في عدد من السّروود النسوية، من خلال الموضوعات التي تعالجها هذه المتون السردية، كالصّمت، والإقصاء، وانهيار القيم، والجسد...
- ✓ المنهج الاجتماعيّ الذي يتجلّى في ربط الناقدة بين الخطاب النسائيّ والبنية الاجتماعية، حيث تُظهر تأثر الكاتبات بالخطاب الذي ينتجه المجتمع بمؤسّساته المختلفة، وهو ما ينعكس في إبداعاتهنّ من خلال الكشف أو النقد.

1- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2- فاطمة كدو: الخطاب النسائيّ ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص 12.

3- عبد الله الغدامي: النقد الثقافيّ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء- بيروت، ط3، 2005، ص83.

✓ المنهج النفسي، حيث تشير الناقدة إلى انعكاس نفسية المبدعات في متونهن السردية، إذ يعبرن عن هواجس ومشاعر الأنثى، ومعاناتها من تهميش المجتمع.

✓ المنهج المعجمي الذي تصرّح به في القسم الثالث من هذا الكتاب، وأنها استعارته من جورج ماطوري الذي عرفه بأنه "تفسير لأفعال المجتمع من أجل إضاءة مناطق الظلّ في اللغة، أي القسم الأكبر من العالم الذهني لمجتمع معين ومن ثقافته ونظرته إلى العالم"¹. ويظهر هذا المنهج جلياً على امتداد القسم الثالث من الكتاب، حيث عمدت الناقدة إلى دراسة أفعال المجتمع وتفسيرها.

3- مضامين الكتاب:

3-1- القسم الأول: مقارنة خطاب المرأة: المكونات والآليات:

3-1-1- المرأة في خطاب نصر حامد أبو زيد من خطاب الأزمة إلى الخطاب المأزوم:

تقدّم الناقدة "فاطمة كدو" في هذا الفصل رؤية نصر حامد أبو زيد لخطاب المرأة في العالم العربي المعاصر، من خلال كتابه "دوائر الخوف". فهذا الخطاب في نظره قد انتقل من الأزمة إلى المأزوم، نظراً لافتقاره للآليات والأرضية المناسبة لإنتاج خطاب نهضوي، وهذا ما جعله يرفض تسميات من قبيل خطاب الصحوة أو التّهضة، ويعتبر أنّ ما تمّ إنتاجه حول المرأة في العالم العربي هو خطاب عنصري، ومبرّره في ذلك إيديولوجيا الثقافة السائدة التي تجعل من الرجل مركزاً، في حين أنّ المرأة مجرد تابعة له، فهي "حين تتساوى فإنّها تتساوى بالرجل، وحين يسمح لها بالمشاركة فإنّها تشارك الرجل، وفي كلّ الأحوال يصبح الرجل مركز الحركة وبؤرة الفاعلية"². ولا يكتفي "أبو زيد" بتحليل الثقافة الذكورية السائدة، بل يذهب أبعد من ذلك إلى التنقيب في إيديولوجيا اللغة ويعتبر أنّها "تمارس نوعاً من الطائفية العنصرية لا ضدّ الأغيار فقط بل ضدّ الأنثى من نفس الجنس كذلك"³. ومرّد ذلك في نظره إلى مستوى وعي الجماعة التي أبدعت تلك اللغة، وهو ما يخلق نوعاً من الصراع بين بنية اللغة بوعمها التقليدي، وبنيتها بوعمها الجديد. وهنا يمثل "أبو زيد" للوعي الجديد بالخطاب القرآني، والوعي التقليدي بالقيم المغلقة. حيث أنّ الناقد يستدعي قصّة خروج آدم وحواء من الجنة، ويعقد مقارنة بين ما جاء في الخطاب القرآني الذي ساوى بين آدم وحواء في الخطيئة، وبين بعض التفسيرات كالتفسير الطبري الذي يجعل حواء سبب الغواية. وهو يكشف بذلك حقيقة النسق الثقافي السائد الذي يستدعي حواء عند كلّ أزمة. وفي هذا السياق ترى الناقدة "فاطمة كدو" أنّ قضية المرأة هي قضية تنازعتها عدّة خطابات منها ما هو سياسي وديني ونهضوي، حيث سعى الخطابان السياسي والديني إلى نفي المرأة ككيان إنساني واستبدالها بالأنثى كمؤشّر للغرائز والغواية. كما ترى أنّ الخطاب النهضوي لم

1- فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية ، مصدر سابق ، ص151.

2- المصدر نفسه ، ص19.

3- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

يختلف عن الخطاب الديني، وقد تعامل بازدواجية مع قضية المرأة. وهنا تؤكد أنّ المشكل ليس في النصوص الدينية بل في عدم فهمها وتأويلها في اتجاه لا يخدم قضية المرأة.

ثمّ تسلط الناقدة الضوء على مغرب القرن 18 و19 الميلاديين، الذي ترى أنّه لم يعن بقضية المرأة، وهنا توجه النقد للمثقف المغربي الذي أهمل هذه القضية باعتبارها جزءاً من قضايا الحقوق والحريات التي يفترض أن يدافع عنها. والشّيء نفسه بالنسبة إلى "أحزاب اليسار وعدم تبنيها لموضوع حقوق المرأة الاجتماعية والسياسية".¹ في حين أنّها تنوّه "بقاسم أمين" ليس لكونه أول نهضوي عربي دعا إلى تحرير المرأة، بل لأنّه قدّم منهجاً علمياً عقلانياً لفهم ودراسة وضعية المرأة في المجتمعات العربية.

وتضيء الناقدة هذا الفصل بخطاب "خالدة سعيد" حول المرأة العربية، التي نهت إلى الاعتراضات التي يمكن أن يصطدم بها البحث في قضية المرأة، وهي اعتراضات تمثل النسق الاجتماعي العامّ الذي يرى في قضية المرأة أنّها لا تأتي في أولويات البرامج التي تؤسس عليها الأحزاب السياسية نضالاتها وتوجهاتها.² وهنا ترى "كدو" أنّ هذا النسق الذي وضع إطاراً تتمّ من خلاله مناقشة قضية المرأة، هو الذي أسهم في خلق لغة الاختلاف في الكتابة النسائية. وتشيد الناقدة بدور "خالدة سعيد" في إضاءة مرحلة مهمة من التاريخ العربي، خصوصاً ما يتعلّق بكون المرأة كائن بغيره لا بذاته، حيث عرضت في هذا السياق لمختلف أشكال الاستغلال والتهميش الذي عانتها المرأة. والذي ترى كدو أنّ أثره مازال مترسباً في البنية الذهنية للمجتمع الذي مازال يعامل المرأة بدونية واحتقار.

3-1-2- دوائر الخوف في خطاب المرنيسي:

عرضت "فاطمة كدو" قراءة "نصر حامد أبو زيد" في كتاب "فاطمة المرنيسي" الموسوم بـ: "الخوف من الحداثة: الإسلام والديمقراطية"، حيث عنون هذه القراءة بـ: "دوائر الخوف عند المرنيسي"، وأكبر هذه الدوائر حسب "كدو" هي دائرة الخوف من الحداثة، وفي هذا السياق تشير إلى أنّ الخوف هنا لا يتعلّق بالذات الأنثوية، وإنّما يرتبط بالمجتمع الذكوري الذي يخاف التغيير. وهذا الخوف هو ما جعل "المرنيسي" و"أبو زيد" يصفان خطاب المرأة بكونه مأزوماً ومتأزماً، وكلاهما نهل من التراث قراءة وتحليلاً. حيث إنّ "المرنيسي" تعود بنا في كتابها "سلطانات منسيات" إلى بعض المجتمعات التي لم يكن خطاب المرأة فيها مأزوماً، بل كان للمرأة فيها مكانة مرموقة. كاليمين الذي اعتبرته بلداً متفرداً ليس كون النساء فيه كنّ يمارسن السلطة السياسية فحسب، بل كانت بعض الملكات "كالملكة أسماء والملكة أروى تتمتعان بلقب قائد الدولة، حيث كانت خطبة الجمعة تلقى في المساجد باسميهما مقروناً باسمي زوجيهما".³ فالمرنيسي توسّلت بالتاريخ للبحث عن حقيقة الخطاب الرائج حول المرأة قديماً، سواء كان خطاباً مأزوماً أو مشرقاً.

1- المصدر نفسه، ص33.

2- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص34.

3- المصدر نفسه، ص49.

أما عن خطاب المرأة في الحاضر فلم تجد المرنيسي خيرا من تجربتها مع حدود الحريم في كتابها "نساء على أجنحة الحلم" الذي رصد حسب الناقدة معاناة النساء القابعات خلف الأسوار، الممنوعات من الحياة بكل تجلياتها، إلا في الحدود التي رسمها وسمح بها الرجل، النساء اللواتي تسلحن بالأحلام لتزيين عوالمهن. وتوسلن بالتطريز لنقل هواجسهن، "وصولاً إلى الذهاب إلى السينما وتغيير اللباس والتظاهر في الشوارع".¹ وترى "فاطمة كدو" أن عالم "الحريم" حظي باهتمام فاطمة المرنيسي التي عكفت على دراسته وتحليله، وتوصلت إلى أن مسألة الحريم لم تقف عند حدود المؤسسة الذكورية في عالمنا العربي، بل استقطبت اهتمام الغرب، الذي ظلّ رجاله يحلمون بعالم الحريم، خصوصا وأنّ المرأة الأوروبية كانت تسير بثبات في طريق تحقيق الذات، وهو ما انعكس في اللوحات الفنية والروايات التي حاولت تصوير "الحريم" كما هو في خيال الغربيين.

3-1-3- خطاب المرأة في المشروع الثقافي- النقدي لعبد الله الغدامي:

تتناول "فاطمة كدو" في هذا الفصل خطاب المرأة عند "عبد الله الغدامي" من خلال كتابه "النقد الثقافي" الذي استشفت فيه ملامح مشروعه النقدي القائم على الانتقال من النقد الأدبي. الجمالي للنصوص إلى النقد الثقافي لها، حيث جعل بؤرة انشغالاته ومحور بحثه الشعر² الذي وضعه موضع تساؤل حول إمكانية تسرب بعض الأنساق الثقافية منه لتؤسس سلوكا غير إنساني. وفي هذا الإطار يصحّح "الغدامي" بتأثره بعدة مشاريع غربية حول النقد الثقافي مثل: (مشروع فندست ليتشر، ومشروع ستيفن غرين بلات...)، حيث إن مشروع ينحو نحو الاشتغال على وظيفة النقد الثقافي، وهو الأمر الذي دفع به حسب الناقدة إلى التركيز على "الخطاب الشعري" من خلال مقولات محملة بأنماط من القيم يزكّمها القول الشعري، وتغلغلت على التوالي في ثقافتنا اليومية³. أي أنه ساهم بشكل أو بآخر في تشكّل الثقافة العربية.

وقد خلصت "فاطمة كدو" من خلال قراءتها لمجموعة من كتب "الغدامي" إلى أنّ خطاب المرأة عنده يتأثت نقدا وتحليلا بالجسد واللغة لأجل فهم البنية الذهنية للنسق الثقافي وآليات اشتغاله. حيث إنّ الجسد في رأي الناقدة يحتلّ حيّزا هاما من تفكير الغدامي، باعتباره "نسقا ثقافيا يتموضع بين "جسد الفحل" و"جسد الأنثى"⁴. وما يتولّد عن ذلك من صراع. فالجسد الأنثوي مجرد أداة ضمن النسق الثقافي الفحولي، دوره محصور في الإمتاع، أو جلب الذكورة التي تعزّز سلطة الأب الثقافي، الذي يعزّز موقع الأنوثة المسلوقة التابعة، ويعزّز موقع الذكورة. وفي هذا السياق يكشف "الغدامي" عن المغالطات التي تقدّمها الثقافة الفحولية عن مفهوم التأنيث، حيث تعمد إلى تحريف "الأنوثة عن السير في نهج ما هو عقلي وثقافي وفكري وترهنا في جسد شبقي مثير"⁵. وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك حسب رأي الناقدة، حيث سعت هذه

1- المصدر نفسه، ص 68.

2- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص 74.

3- المصدر نفسه، ص 80- 81.

4- المصدر نفسه، ص 83.

5- المصدر نفسه، ص 97.

الثقافة الذكورية إلى رفض التأييد في الخطاب الشعري، وعدت ذلك مما ينقص من قيمته. وهو ما جعل المرأة المبدعة في رأي الغدامي تكتب بأسماء مستعارة هروبا من الشرط الثقافي الذي منعها من قول الشعر، حتى أتى الفتح الشعري على يد الشاعرة نازك الملائكة التي حسب رأيه أنثت الشعر وخرجت من جلاب الفحولة.

ختاما تقف "فاطمة كدو" عند مكونات منظومة اللغة عند "الغدامي" كمكون التحوّل الذي رصد من خلاله تحوّل المرأة من موضوع لغوي إلى ذات فاعلة. ومكوّن الاكتئاب الذي عانته المرأة المبدعة بسبب الصراع العنيف مع الثقافة الذكورية التي رفضت الاعتراف بما تكتبه. وأخيرا مكوّن المجاز المذكّر، حيث أنّ المرأة بدخولها عالم اللغة أعادت النظر في كونها مجرد موضوع، وأخذت المبادرة لجعل الفحولة تكتب كما كتبت الأنوثة لعقود طويلة.

3-2- القسم الثاني: الكتابة النسائية من تناقض الأطروحات إلى بناء الكتابة:

3-2-1- الكتابة النسائية والشبكة المؤسسية داخل المجتمع:

تفتتح الناقدة "فاطمة كدو" هذا الفصل بالإشارة إلى تعدّد المفاهيم بخصوص الكتابة النسائية، بين قابل ورافض لهذه التسمية، وتؤكد على خصوصية الكتابة النسائية فبالرغم من كون الرجل والمرأة يكتبان باللغة نفسها، "لكن على مستوى شحنة المعاناة والرؤية والرصيد الثقيل من النضالات ضد الإقصاء والتمهيش تختلف كلّ المعطيات".¹ حيث أنّ المرأة تعبّر عن هذه الهواجس في كتاباتها، وتنتقد الواقع في خطابها.

كما تؤكد الناقدة أنّ الكتابة النسائية تتأسس على أطروحات المؤسسات المهيمنة داخل المجتمع، حيث تستقطب الشبكة المؤسسية داخل المجتمع عدّة خطابات ولغات متصارعة فيما بينها. ومن بين هذه المؤسسات: المؤسسة التعليمية التي ترى الناقدة أنّه تمّ إقصاء المرأة منها ردحا من الزمن من طرف المؤسسة الذكورية، وقد قدّمت نماذج ممن حاربوا تعليم المرأة، كالجاحظ، والفرزدق وعبد الحميد بن يحيى وخير الدين نعمان بن أبي الثناء، الذين أجمعوا على أنّ تعليم المرأة يجلب الشرّ، وأنّه من عمل الشيطان. لذلك فإنّ المرأة حين أرادت دخول المؤسسة التعليمية كانت تحتاج إلى "وعي خارق بشروط اللغة وقيودها لكي تتمكّن من إحلال (الأنوثة) بإزاء (الفحولة) بوصف الصّفتين معا قيمتين إبداعيتين تحظيان بالدرجة نفسها من الاحترام والجديّة".² وكان عليها أن تجد ما تضيفه للغة ذكورية كي تضيفي عليها خصوصية وفرادة.

ثمّ تنتقل "فاطمة كدو" إلى مقارنة المؤسسة القانونية في تجاذبها مع الحركة الاجتماعية، للتأكيد على مفهوم التمييز في النصّ القانوني الذي لا ينسجم مع المواثيق الدولية، وهو ما يجعله في صراع دائم مع القوى

1- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف - مقارنة للنساق الثقافية، مصدر سابق، ص 113.

2- المصدر نفسه، ص 116.

الاجتماعية. أما المؤسسة السوسولوجية فهي حسب الناقدة تسعى إلى إخضاع المرأة لعمليات تحويلية من أجل تقديم نموذج نمطي للمرأة على غرار المؤسسات سابقة الذكر.

وتختتم "كدو" هذا الفصل بالحديث عن المؤسسة الثقافية، التي تقصي المرأة وتخضعها لسلطة بطرياقية تفرق بين اللفظ والمعنى، حيث تخصّ الرجل باللفظ لأنه في نظرها الأسمى، وتمنح المرأة المعنى لأنه الأدنى. ومن رحم هذا الصراع تنبثق الكتابة النسائية التي تقف في وجه هذا الخطاب المؤسسي وتنتقد نزعتة الذكورية.

3-2-2- السرد النسائي المغربي: من البحث عن الهوية إلى سلطة النص:

حاولت الناقدة "فاطمة كدو" في هذا الفصل رصد آليات اكتساب المرأة لهوية ثقافية وفكرية، تساهم من خلالها في "فعل الكتابة"، في محاولة لجعل النصّ/المتن الذي تكتبه المرأة، المجال الأمثل على المستوى الثقافي والفكري، باعتباره الناطق بالدواخل الإنسانية، والاجتماعية والتاريخية والسياسية للمرأة. لكنّه في الآن ذاته يعكس المؤثرات الخارجية الثقافية خصوصا التي أثرت في هذا الخطاب بشكل أو بآخر¹. وتعتبر فاطمة كدو أنّ أهمّ هذه الآليات لاكتساب هوية ثقافية هو امتلاك المرأة ضمير "الأنا" الذي يمكنها من التعبير عن ذاتها والإفصاح عن مكنوناتها، بعد أن كان يُعبّر عنها بلسان الرجل. ولم تُسنّ الناقدة الإشارة إلى فساد المؤسسة النقدية، كنسق ثقافي يساهم في تهميش كتابات المرأة وعدم إعطائها حقها من المواكبة والتقييم.

3-2-3- الأنساق الثقافية في السرد النسائي المغربي: محاولة في التصنيف:

عمدت "فاطمة كدو" في هذا الفصل إلى مقارنة انشغالات الدراسات الثقافية والنقدية، التي حاولت من خلال تعاملها مع النصوص الأدبية، إبراز الصراع الطبقي بين الرجل كمثل للأنساق الذكورية، والأنثى كذات تحاول إثبات كينونتها، والمؤسسات التي تحتضن الفكر الذكوري وتقصي الآخر/المرأة. "ومن خلال أطراف النزاع هذه تبني الكتابة معمارها وتشيد به من أجل كشف وتوعية الواقع"². فالمرأة حين تكتب تستحضر معاناة بنات جنسها، وتواري الستار عن اختلال الأنساق الثقافية والمؤسسية المحيطة بها.

3-3- القسم الثالث: الأنساق الدلالية وصراع الجمل الثقافية، نحو مقارنة للجمل الثقافية:

3-3-1- نحو مقارنة للجمل الثقافية:

تحاول الناقدة في هذا المحور الذي جاء معنونا ب: "من معجم الثنائيات إلى ازدواجية اللغة: نحو مقارنة للجمل الثقافية"، الوقوف على أهمية اللغة في إبراز خصوصية الكتابة النسائية، حيث أنّ المرأة المبدعة تتوسّل باللغة لإعلان فلسفة الاختلاف والمشاركة مع الآخر في وضع آليات وأسس هذه اللغة.

1- المصدر نفسه، ص 128 - 129.

2- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص 142.

وقد عمدت "فاطمة كدو" إلى رصد الثنائيات المعجمية الثأوية في مجموعة من السرد القصصية النسائية المغربية، كمجموعة "مواقع أنثى" لسعاد الرغاي التي تكشف من خلالها عن تناقضات مؤسسات المجتمع، كالمؤسسة الإعلامية في إحدى القصص التي تمخضت عنها مجموعة من الثنائيات؛ كالإقصاء/الوصاية اللذان تتعرض لهما المرأة باعتبارها ناقصة عقل لا تصلح للأدوار الريادية، حيث "تحضر المؤسسة الإعلامية من وجهة نظر أنثوية كمؤسسة حاملة لثقافة مضمرة هي أساس تفاعلها مع المجتمع ومكوناته، من خلالها تتجاذب أطراف المصالح المتبادلة، أما الثقافة المعلنة فهي مجرد واجهة تتعايش شكلياً مع مفاهيم مثل الديمقراطية، الرأي والرأي الآخر.."¹ وهذا الخطاب المزدوج ينسحب أيضاً على المؤسسة الأدبية فتميط من خلالها الساردة اللثام عن الوجه الخفي للمثقفين في البلاد، الذين يلتزمون الصمت في مواجهة القضايا القومية والمصيرية، ويكتفون بتبادل الأنخاب حد الثمالة. في السياق نفسه وفي قصة أخرى من المجموعة ذاتها تضع الساردة اليد على معاناة أخرى للمرأة ضمن شروط ثقافية مغايرة، تتوالد عنها ثنائية الشرق/الغرب. وتلك المقارنة الموجهة التي تضعنا في مواجهة مع المضمرة في الأنساق الثقافية في بلداننا العربية، التي تتمخض عنها مجموعة من الجمل الثقافية تعكس الخطاب النسائي المحمل بالرفض والرغبة في إثبات الذات والمشاركة المتفاعلة ورفض هيمنة الآخر.

بعدها تنتقل الناقدة إلى دراسة مجموعة قصصية أخرى بعنوان "ترانت سيس" "المليكة مستظرف" التي "ترسل الجمل الثقافية في وجه القارئ ألوانا متناقضة للمؤسسات الاجتماعية. لكنّها ألوان لا بريق لها، باهتة رغم ما تدعيه من حداثة ومواكبة لمستجدات الحياة"²، حيث يعمل السرد الأنثوي على فضح المسكوت عنه، وكشف الأقنعة التي يستتر خلفها النسق الثقافي المضمرة، التي تفضي إلى بشاعة الواقع وتعسفه على المرأة.

3-3-2- من الجملة الثقافية إلى أفعال المفردات:

تستمر "فاطمة كدو" في تتبع الجمل الثقافية وذلك من خلال دراسة الأفعال المعجمية أو ما تسميه "بأفعال المفردات" في السرد النسائي المغربي، "من أجل تحديد الطابع العام لهذه المفردات ومدى تعبيرها عن التفاعلات الاجتماعية، والصراعات اليومية، من وجهة نظر أنثوية، وكذا البحث عن إمكانية عقد مقارنات قابلة للتجسيد بين مختلف أنماط الكتابة في السرد المغربي المؤنث"³. والناقدة وجدت في رواية "أخايد الأسوار" "زهرة الرميح" ضالّتها، حيث أنّها من الكتابات اللاتي يحفلن بالمعنى ويتفنن في نحته. وقد تمكنت "فاطمة كدو" بالفعل من رصد مجموعة من الأفعال التي تألفت داخل المتن الروائي لتصف عالم المعتقلين، وتداعيات الاعتقال على الزوجات والأسر، ومن تلك الأفعال نجدها تخصّ بالدراسة "أفعال الإحساس" المهيمنة على هذا المتن الروائي، والتي رصدت من خلالها تجربة الذات الأنثوية في علاقتها بالآخر/الزوج، والمجتمع، وهنا تحاول الناقدة إبراز العلاقة القائمة بين الذات والمجتمعي، فالساردة تعبّر بأفعال

1- المصدر نفسه، ص156-157.

2- المصدر نفسه، ص175.

3- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص189.

الإحساس عن ذاتها، لكن هذه الأفعال نفسها تحيلنا على الجمعي من خلال النتائج التي تفضي إليها. أما "أفعال الشك" فتحضر في سياق الكشف عن أنساق ثقافية يهدم بعضها البعض، في مجتمع تنهار فيه القيم الإنسانية، يقف الرجل/المعتقل موقف شك من كل تلك الأنساق الثقافية التي تواضع عليها المجتمع، ويحطم أمل المرأة التي كانت مؤمنة إلى حد ما بتلك الأنساق. وغير بعيد عن هذا تشير الناقدة إلى نوع آخر من الأفعال الثاوية في هذا المتن السردي النسائي، وهي "أفعال السياسة" التي تحضر للكشف عن خطاب المؤسسة الحزبية كنسق فكري ثقافي يفقد تأثيره في المجتمع. وتقف الناقدة أخيرا عند نوع آخر من الأفعال وهي "أفعال الفقه والدين" كمؤشر على التحويلات التي تشهدها الساحة المغربية، التي تعرف بروز المؤسسة الفقهية كبديل محتمل للمؤسسة الحزبية، وهي نسق ثقافي له دلالاته وجملته الثقافية التي يسعى من خلالها إلى تأسيس خطاب مؤثر في المجتمع.

3-3-3 من وأد الجسد إلى وأد اللغة:

تقدم لنا الناقدة "فاطمة كدو" في الفصل الثالث من هذا القسم "الجسد" من خلال مجموعة من السرد النسائية المغربية. فتحاول الكشف عن التعلق الثقافي الحاصل بين الجسد واللغة في السيرة الروائية "نساء في الصمت" "لنفيسة السباعي"، التي سلطت الضوء على مختلف أشكال العنف الجسدي الذي تتعرض له الذات الأنثوية كالتحرش، الاغتصاب، تعنيف الجسد...، ويؤدي بها إلى وأد جسدها ذاتيا، قبل أن يتعرض إلى الوأد من طرف الآخر والمجتمع، وهذا الوأد الجسدي يؤدي إلى وأد اللغة، حيث أن الأنثي غالبا ما تتسلح بالصمت خوفا من النسق الثقافي الذي يحتملها عادة المسؤولية ويحولها من ضحية إلى متهمة. "فالحكي وهو يتأسس على المعطيات الثقافية للجسد، لدى جماعة محدّدة، يحمل مقصديّات عميقة من المعيش اليومي"¹ حاولت الناقدة رصدها من خلال دراسة مجموعة من الجمل الثقافية التي تشير إلى أفعال الجسد.

في السياق نفسه تنتقل "فاطمة كدو" إلى نصوص "وفاء مليح" التي تمتطي صهوة الجسد لفضح المسكوت عنه، فتقول عنها: "يتضح من خلال كتابات وفاء مليح أن اللغة والجسد هما مشروع قائم الذات في إبداعاتها"²، وتختار الناقدة من هذه الإبداعات مجموعة قصصية بعنوان "اعترافات رجل وقح" التي حاولت من خلالها إبراز احتفاء المبدعة بالجسد كقيمة جنسية، والتوسل به لإعلان العصيان على السائد الثقافي. أما في روايتها "عندما يبكي الرجال"، "فإن وفاء مليح ستجعل الجسد المذكر مادة للثقافة تفعل فيه ما تشاء، مع الإبقاء على نزيه الأنساق الثقافية التي تكبل الأنثى وتحاصرها، ممعنة في رهنها داخل دونية تشل إنسانيتها"³، فالنص في هذه الرواية يسجل نضال المرأة لتكسير الثقافة الذكورية من خلال تحويل الرجل الذي كان دائما المتحكّم في الأنساق اللغوية لموضوع تستهلكه الذات الأنثوية، وتجرده من فحولته من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الذات الأنثوية تجاهد لإثبات ذاتها، وإعلان حضورها. وغير بعيد عن

1- المصدر نفسه، ص 220.

2- المصدر نفسه، ص 225.

3- فاطمة كدو: الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، مصدر سابق، ص 234.

ذلك "نجد فاطمة كدو" تنهي هذا الفصل بدراسة قصة "عادي" من مجموعة قصصية لفاطمة بوزيان بعنوان "ليلتي"، حيث أنّ "القصة ترصد أفعال الجسد في صيغته المذكرة وليس صيغته المؤنثة، جسد الرّجل هو مدار السرد وحبكته، وبؤرة المضمير الثقافيّ المستكين والمختبئ خلف المعلن من عبارات وإشارات وتلفّظات"¹. واختيار النّاقدة لهذا المتن كان لأجل الكشف عن المضمرة الثقافيّة الذكوريّة التي تختفي خلف المعلن الدال على التّحضّر والرّقيّ.

4- الخاتمة:

سعت النّاقدة "فاطمة كدو" في دراستها الموسومة بـ "الخطاب النسائيّ ولغة الاختلاف" إلى إبراز خصوصيّة "خطاب المرأة" من خلال اللّغة التي تكتب بها، مستعينة في ذلك بمجموعة من المقاربات التي عنيت بخطاب المرأة، كمقاربة ناصر حامد أبو زيد، وفاطمة المرينسي، وعبد الله الغدامي. ومن بين الخلاصات والنتائج المتوصّل إليها نذكر:

- ✓ خلصت النّاقدة من خلال دراستها لمقاربة "ناصر حامد أبو زيد" لخطاب المرأة، إلى أنّه لا يعترف بما يصطلح عليه بـ "خطاب الصّحوة" الذي يحاول مقارنة قضايا المرأة على جميع الأصعدة، ويرى أنّه خطاب مأزوم على المستوى الفكريّ والثّقافيّ لأنّه يفتقد الآليات التّطبيقيّة.
- ✓ توصّلت "فاطمة كدو" إلى أنّ "ناصر حامد أبو زيد" قد كشف من خلال دراسته للتراث عن التناقض بين الواقع المعيش وما تدعو إليه النّصوص، وخاصّة النّصوص الدّينيّة، فإذا كان الإسلام يدعو إلى المساواة وتكريم المرأة، فإنّ التّنشئة الاجتماعيّة والثّقافيّة تعمل على احتقارها وتمهيشها.
- ✓ ترى "فاطمة كدو" أنّ "فاطمة المرينسي" و"ناصر حامد أبو زيد" يشتركان في رؤيتهما لخطاب المرأة، بكونه خطاباً مأزوماً، حيث قارنت المرينسي بين وضعيّة المرأة في حضارات قديمة، إذ كانت تكرم وتتساوى بالرّجل، وبين وضعيتها في الحاضر الذي عايشته، إذ تحبس خلف الأسوار وتمنع من جلّ حقوقها.
- ✓ وقف "عبد الله الغدامي" - وتجاريه النّاقدة في ذلك- على أبعاد النّسق الثّقافيّ العربيّ، ودوره في تشكيل الذّهنيّة العربيّة، التي تقصي الآخر وتمهشه.
- ✓ تسلّط النّاقدة الضّوء على الشّبكة المؤسّساتيّة داخل المجتمع، ودورها في تأسيس الكتابة النسائيّة، التي تحاول كشف النّقاب عن هذا الخطاب المؤسّساتيّ وانتقاد خروقاته وتناقضاته.
- ✓ تقف النّاقدة عند أهميّة اللّغة التي اتّخذتها المرأة وسيلة لإعلان فلسفة الاختلاف والتّعديّة، والمشاركة المتفاعلة مع الآخر/الرّجل في وضع آليات وأسس اللّغة.

- ✓ إعادة الاعتبار للمهمل والهامشي، من خلال تبني "لغة المعاني" التي تعمل على الاشتغال على اللفظ من أجل توليد المعنى.
 - ✓ كشف تناقضات المؤسسات الثقافية والاجتماعية، القائمة على ازدواجية الخطاب، من خلال رصد الجمل الثقافية الثاوية في مجموعة من المتون السردية التي ساهمت في تعرية المضمرة، والإبانة عن هشاشة المعلن الذي يتهاوى أمام ما تفرزه الجمل الثقافية من حقائق.
 - ✓ التركيز على أهمية دور الكلمة، وما يتشكل عنها من ثنائيات، من أجل إبراز لغة الاختلاف في ما كتبه الكاتبة المغربية.
 - ✓ التوسل بالمتون السردية النسائية المغربية، من خلال ما تولده من مفردات من أجل المقابلة بين أفعال المفردات وأفعال المجتمع.
 - ✓ الكشف عن التعلق الثقافي بين الجسد واللغة، من خلال دراسة متون سردية نسائية تحفل بالجسد وتتوسل به لمناهضة الصورة النمطية عن المرأة.
- ختاماً يمكن القول إن كتاب "الخطاب النسائي ولغة الاختلاف" للكاتبة "فاطمة كدو" يعد إضافة مهمة للمكتبة النقدية النسائية بالمغرب، حيث كشف عن الوضع المتأزم للمرأة وازدواجية الخطاب المؤسساتي والمجتمعي، من خلال عرضه لمجموعة من المقاربات التي عنيت بالخطاب النسائي، ومجموعة من المتون السردية المغربية، التي ركزت فيها "كدو" على حضور الجسد في تعالقه الثقافي مع اللغة. وحاولت الناقدة إبراز خصوصية اللغة التي توظفها الكاتبات، وهي في نظرها لغة مختلفة عن اللغة التي يوظفها الكتاب، حيث تسعى المرأة من خلالها إلى كشف المضمرة المتواري خلف الخطابات الثقافية التي تنتجها الشبكة المؤسساتية داخل المجتمع.
- وقد نجحت الناقدة في كشف الحمولة الدلالية للأفعال والجمل الثقافية، التي رصدتها في المتون السردية المدروسة، باعتبارها تحمل خطاباً موجهاً وملزماً للمرأة باعتبارها الطرف المهمش في هذه الخطابات. ولعل دخول المرأة إلى المؤسسة الأدبية، ومشاركتها في تأثيث المشهد الثقافي المغربي، يشكل في حد ذاته انتصاراً لها، على العقلية الذكورية التي تسعى إلى تهميشها، والتقليل من شأن إنتاجها الفكرية والإبداعية.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر الرئيسي:

1- كدو (فاطمة): الخطاب النسائي ولغة الاختلاف- مقارنة للأنساق الثقافية، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.

المراجع باللغة العربية:

- 1- الحجمري (عبد الفتاح): عتبات النصّ البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ط1، 1996.
- 2- الغدامي (عبد الله): النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط3، 2005.